مشروعية طلب الشفاعة من الميت على ضوء ۶۴ من سورة النساء

جلال سوارى*

تاريخ دريافت: ١٦/ ٠٢/ ١٤٠٣ تاريخ پذيرش: ٠١/ ٠٣/ ١٤٠٣

الملخص

إن آية ٦٤ من سورة النساء هى إحدى الأدلة القرآنية فى اثبات مشروعية طلب الشفاعة من النبى الأكرم(ص) أو بأولياء الله الصالحين، سواء كان ذلک فى حياتهم أو بعد مماتهم، ومن الشواهد التى تأييد ذلک أيضاً، هى الروايات الصحيحة فى كتب اهل السنة التى تشير الى أن الصحابة و التابعين عملوا بمضمون هذه الآية واستشفعوا به (ص) بعد وفاته، وهى تردّ شبهات الوهابية التى أوردوها على المسلمين بحيث منعوهم من الإستشفاع به (ص) بعد مماته، وزعموا أنه نوعٌ من الشرک بالله سبحانه، وأن الآية الكريمة لادلالة لها على مشروعيته، لكنه بعد البحث العلمى والتدقيق فى هذه الآية الكريمة والروايات المرويّة فى كتبهم المعتبرة والنظر فى شبهاتهم، نجد أن الإستشفاع بالرسول الأكرم (ص) سواء قبل مماته أو بعده أمراً جائزاً ومشروعاً بل هو من الإمور المحبوبة و المرغوبة عند الشارع، فحثّ الأمة بهذه الآية الكريمة على ذلک كما صرح بها علماء المسلمين، فلا يبقى إشكالٌ ولا شبهة تمنع المسلم من طلب الشفاعة منه (ص) بعد وفاته.

الكلامات الرئيسية: الشفاعة، الإستشفاع بالأموات، آية ٦٤ سورة النساء، طلب الشفاعة، الإستشفاع بالنبى.

* عالم المستوى الثالث فى حوزة قم العلمية.

مقدمة

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الانبياء والمرسلين محمد وآله الطاهرين أما بعد: لا خلاف بين فِرَق المسلمين فى جواز طلب الشفاعة من نبيٍّ او وليٍّ فى زمن حياته لِما وردت من آياتٍ و روايات واضحة تدل على ذلک، إنما وقع الإختلاف فى ما إذا كان الإستشفاع من ميتٍ، فالوهابية لا يجيزون طلب الشفاعة من الميت بزعمهم أنه لم يقدر على الشفاعة بعد موته، بل عَدّوه نوعاً من أنواع الشرک بالله تعالى واستدلوا لذلک ببعض الأدلة القرآنية و الروائية ظنّوا أنها تنفى مشروعية الإستشفاع بالميت مطلقاً، مع أن تلک الأدلة لا تثبّت دعواهم ولا دلالة لها على زعمهم وقد بحثها علماء السنة والشيعة ورَدّوا على شبهاتهم بالأدلة القرآنية والروائية الصحيحة وأثبتوا من خلالها مشروعية طلب الشفاعة من الميت، فمن الأدلة التى يستند إليها القائلون بجواز طلب الشفاعة من الأموات هى آية ٦٤ من سورة النساء فى قوله تعالى {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوکَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا}؛ إلا أن الوهابية بذلوا كلّ جهدهم بجعل الشبهات والإشكالات لنفى دلالتها على مشروعيته، وقالوا إن الآية لاتدلّ على جواز طلب الشفاعة منه(ص) فى زمن مماته بل هى مختص بزمان حياته، فبعد البحث عن تلک الشبهات وجدتُ أهم شبهاتهم فى موقعِ الكترونى (الموقع (https://www.dd-sunnah.net/ شبهة (ولوأنهم إذ ظلموا أنفسهم) ومالک الدار والعتبى / مجموعة ردود) حول هذه الآية التى تتلخص فى تسعة أمور:

الأول: أن الآية تختص بزمن حياة النبى (ص).

الثانى: أنها إنما نزلت فى قوم معينين لا تشمل غيرهم من المسلمين.

الثالث: المجيء الى قبر النبى (ص) لا يُعد كالمجيء اليه ولشخصه (ص).

الرابع: النبى (ص) لا يسمع بعد موته فكيف يسمع من جاء الى قبره ليستشفع به؟!

الخامس: الصحابة لم يأتوا بعد وفاته (ص) الى قبره لطلب الشفاعة منه، بل الثابت عن الخليفة الثانى هو ترک التوسل به بعد وفاته.

السادس: طلب الشفاعة منه وهو فى قبره عبادة غير الله التى نهى الله عنها فلا يجوز الاستشفاع بقبره.

السابع: إن الحديث النبوى «إذا مات بنُ آدم انقطع عملُه إلا من ثلاث....الخ» ينفى امكانية الإستشفاعة بالنبى بعد وفاته لعدم قدرة النبى على شيء بعد موته.

الثامن: إن آية {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}، تذم منادات النبى (ص) من وراء حجرته الذى دفن فيها، فيلزم منه عدم جواز طلب الشفاعة منه عنده قبره.

التاسع: إن الآية لو صح أنها تحث على المجيء الى قبره وتجعله واجباً على كل مسلمٍ، يلزم منه تعطيل الحج والعمرة.

فمحور أبحاثنا هى هذه الشبهات التى إستخرجتها من الموقع الكترونى فبعون الله تعالى سنجيب عنها من خلال ذكر الآيات والروايات وتحليلها، ونثبت جواز طلب الشفاعة من النبى بعد وفاته على ضوء هذه الآية الكريمة وكون هذه الشبهات التى ذكروها فى هذا المقام لا تمنع من دلالة الآية الكريمة.

علماً إن هذه المسئلة ودلالة هذه الآية على مشروعية طلب الشفاعة قد بحثها الكثير من العلماء من السنة والشيعة فى مجالات مختلفة وسعوا فى رد شبهات منكرى الإستشفاع به (ص) بعد وفاته إلا أن الأسئلة والأجوبة كانت غيرجامعة أو غيركافية فوجتّ من الواجب أن أجمع هذه الشبهات حول هذه الاية وأجيب عنها حتى يكون ذلك إحقاقاً للحق وإبطالاً للباطل و نصرةً للدين الحنيف.

يجب فى بداية البحث، معرفة معنى الشفاعة لغةً واصطلاحاً ثم التطرّق الى البحث المفصل فى دلالة هذه الآية وبيان شأن نزولها مع إستنادٍ الى جملةٍ من المصادر المعتبرة و أقوال علماء السنة فيها، ثم نجيب عن الشبهات المذكورة بإذن الله تعالى فمحور أبحثنا تكون فى ثمانية أمور.

معنى الشفاعة لغة واصطلاحاً

قال ابن فارس فى كتابه معجم مقايس اللغة: « (شفع الشين و الفاء و العين أصلٌ صحيح يدلُّ على مقارنَة الشيئين. من ذلک الشّفْع خلاف الوَتْر. تقول: كان فرداً فشفَعْتُه . قال اللّٰه جل ثناؤه: {وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ}»(ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ١٤٠٤ق: ج٣، ص٢٠١) و

فی مفردات الفاظ القرآن: «اَلشَّفْعُ: ضمّ الشیء إلی مثله، و یقال لِلْمَشْفُوعِ: شَفْعٌ، و قوله تعالی: {وَ اَلشَّفْعِ وَ اَلْوَتْرِ } ».(راغب اصفهانی. مفردات ألفاظ القرآن، ١٤١٢ق: ص ٤٥٧)

وأما إصطلاحاً، قال الثعلبی فی تفسیره فی تعریف (الشفاعة): «وهی التوسط للغیر بجلب منفعة أو دفع مضرة، یعنی أن یکون الشافع بین المشفوع إلیه والمشفوع له واسطة لجلب منفعة إِلَی المشفوع له، أو یدفع عنه مضرة»(الثعلبی، التفسیر الثعلبی، ١٤٣٦ق: ج ٢٢، ص ٨٩)، وعرفها کذلک بن عثیمین: «"الشفاعة" هی التوسط للغیر بجلب منفعة، أو دفع مضرة»(ابن العثیمین، مجموعة فتاوی ورسائل العثیمین، ١٤١٣ق: ج٤، ص٢٩٨)

وبعبارة أخری: إن طلب الشفاعة هو أن تطلب من الشفیع الدعاءَ أو فعل أمرٍ لیکون واسطةً بینک وبین الله ویشفع لک عند الله تعالی حتی تُقضی حاجتک، کقولک: یا رسول الله إشفعی عند الله لتقضی حاجتی.

الأمر الأول: دلالة الآیة الکریمة و شأن نزولها

إن الآیة ٦٤ من سورة النساء تحث المسلمین علی المجیء الی النبی (ص) وطلب الشفاعة منه، فیستیجب الله تعالی دعاء النبی (ص) لهم ویتوب علیهم ویغفر ذنوبهم.

وأما شأن نزولها، فقد أخرج ابن-جریر(الطبری، جامع البیان فی تأویل القرآن،٢٠٠٠م: ج٨ ص٥١٧) وابن-المنذر(بن المنذر، تفسیر القرآن، ٢٠٠٢م: ج٢ ص٧٧٤) وابن-أبی-حاتم(الرازی، تفسیر القرآن العظیم، ١٤١٩ق: ج٣ ص٩٩٣) عن مجاهد فی قوله تعالی { وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ... الخ} أنه قال: «هذا فی الرجل الیهودی والرجل المسلم اللذین تحاکما إلی کعب بن الأشرف الیهودی»؛ فبسبب أنهما لم یتحاکما الی الرسول(ص) بل تحاکما إلی الرجل الیهودی، نزلت الآیة تذمّهم علی عصیانهم وتحثّهم علی المجیء إلی الرسول(ص) والإستغفار عنده والإستشفاع به لکونهم ظالمین لأنفسهم ومذنبین بهذا الفعل الصادر منهم، فبإستشفاعهم بالنبی(ص) وإستغفاره لهم، یتوب الله علیهم.

قال ابن کثیر: «وقوله: { وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤوک... الخ} یرشد تعالی العصاة والمذنبین إذا وقع منهم الخطأ والعصیان أن یأتوا إلی الرسول(ص) فیستغفروا الله عنده، ویسألوه أن یستغفر لهم، فإنهم إذا فعلوا ذلک تاب الله علیهم ورحمهم وغفر لهم، ولهذا قال:{لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِیمًا} وقد ذکر جماعة منهم: الشیخ أبو نصر بن-الصباغ فی کتابه

"الشامل" الحكاية المشهورة عن العتبى، قال: كنت جالسا عند قبر النبى(ص)، فجاء أعرابى فقال: السلام عليک يا رسول الله، سمعت الله يقول: { وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ...} وقد جئتک مستغفرا لذنبى مستشفعا بک إلى ربى ثم أنشأ يقول:

يا خير مـن دفـنت بالقاع أعظمه *** فـطاب من طيبهـن القاع والأكـم

نفسـى الفـداء لـقبر أنت سـاكنه *** فـيه العـفاف وفـيه الجـود والكرم

ثم انصرف الأعرابى فغلبتنى عينى، فرأيت النبى(ص) فى النوم فقال: يا عتبى، الحق الأعرابى فبشره أن الله قد غفر له».(بن كثير الدمشقى، تفسير ابن كثير، ١٤١٩ق: ج٢،ص ٣٦٠)

وقال الشوكانى فى دلالة الآية:«{وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} بترک طاعتک والتحاكم إلى غيرک{جاؤوک} متوسلين إليک منتصلين عن جناياتهم ومخالفتهم {فَاسْتَغْفَرُوا اللّهَ} لذنوبهم وتضرعوا إليک حتى قمت شفيعا لهم فاستغفرت لهم وإنما قال{وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرّسُولُ} على طريقة االلتفات لقصد التفخيم لشأن الرسول (ص) {لَوَجَدُوا اللّهَ تَوّابًا رَحِيمًا} أى كثير التوبة عليهم والرحمة لهم».(الشوكانى، فتح القدير، ١٤١٤ق: ج١،ص٥٥٨)

وقال فخر الرازى أيضاً فى دلالة الآية: «يعنى {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} بالتحاكم إلى الطاغوت والفرار من التحاكم إلى الرسول جاؤا الرسول وأظهروا الندم على ما فعلوه وتابوا عنه واستغفروا منه {وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرّسُولُ} بأن يسأل الله أن يغفرها لهم عند توبتهم {لَوَجَدُوا اللّهَ تَوّابًا رَحِيمًا}».(الرازى، التفسير الكبير، ١٤١٩ق: ج١٠، ص ١٢٦)

لايخفى أن إستناد ابن كثير والنووى بحكاية -العتبى من دون استنكار الفعل من الأعرابى، -أى إستنهادهما مع عدم ردعها- دليل على أن لا إشكال عندهما فى طلب الشفاعة من النبى(ص) بعد وفاته.

وقال النووى فى آداب زيارة النبى (ص): «ثم يرجع إلى موقفه الأول قبالة وجه رسول الله(ص) ويتوسل به فى حق نفسه ويستشفع به إلى ربه سبحانه وتعالى ومن أحسن ما يقول ما حكاه الماوردى والقاضى أبو الطيب وسائر أصحابنا عن العتبى مستحسنين له قال (كنت جالسا عند قبر رسول الله(ص) فجاء أعرابى فقال السلام عليک يا رسول الله سمعت

الله يقول {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ...الخ} وقد جئتک مستغفرا من ذنبی مستشفعا بک إلی ربی ثم أنشأ يقول: يا خير من دفنت... ».(النووی، المجموع، ۱۹۹۷م: ج ۸، ص۲۷٤)

ذكر الدمياطی وعبدالله بن قدامة ما قاله النووی فی آداب زيارة النبی(ص) يحثّون الزائر المجیء الی القبر الشريف، وعلی التوسل والإستشفاع به (ص) مستشهدين بالآية الكريمة.(الدمياطی، إعانة الطالبين، ۱۹۹۷م: ج ۲، ص۳۵۷) (ابن قدامة، المغنی، ۱۳۸۸ق: ج۳ ص٤٤٨٧)

و هذا الإستناد منهم بهذه الآية فی آداب زيارة قبر النبی(ص) دالّ علی جواز الإستشفاع به بعد وفاته(ص) عندهم.

و أما المنكرون لجواز طلب الشفاعة من الميت، فَهُم يقيّدون دلالة هذه الآية بزمن حياته(ص)، قال العالم الوهابی الشيخ ابن باز فی شرح الآية: «هذه الآية الكريمة فيها حث الأمة علی المجیء إليه إذا ظلموا أنفسهم بشیء من المعاصی، أو وقعوا فيما هو أكبر من ذلک من الشرک أن يجيئوا إليه تائبين نادمين حتی يستغفر لهم عليه الصلاة والسلام،...»إلی أن قال «فهو حثّ لهم أی للعباد علی أن يأتوا للرسول(ص) ليعلنوا عنده توبتهم وليسأل الله لهم، وليس المراد بعد وفاته(ص) كما يظنه بعض الجهّال»(بن باز، مجموع فتاوی ابن باز، بی‌تا: ج٦، ص۱۸۹).

يصرح الشيخ ابن باز أن هذه الآية تحُثّ المسلمين علی أن يأتوا إليه (ص) حتی يستغفر ويشفع لهم إلا أنه قيّد هذا المجیء إلی الرسول بزمن حياته، وقال: «ليس المراد بعد وفاته(ص)» وسيأتی الجواب عن هذه الشبهة وسائر الشبهات التی تتعلق بهذه الآية الكريمة.

الحاصل: بَعد بيان دلالة وشأن نزول هذه الآية الكريمة وأقوال كبار العلماء من أهل السنة يظهر بوضح أنها تدلّ علی جواز الإستشفاع بالنبی(ص) سواء فی زمن حياته أو بعد وفاته من دون تقييد بزمن دون زمن، وتحثّ المؤمنين علی المجیء اليه، فلايمكن لأحد من المسلمين الذی يؤمن بهذا القرآن ويعتقد أنه منزّل من الله سبحانه وتعالی، أن ينكر جواز الإستشفاع بالنبی الأكرم(ص)؛ إلا أن الوهابية قد أثاروا الشبهات ومنعوا الإستشفاع به(ص) فی زمن ما بعد مماته، ولذا قسموا التوسل والإستشفاع إلی قسمين(الرفاعی، التوصل إلی حقيقة التوسل، ۱۹۷۹م: ص۲۲) مشروعٍ و ممنوعٍ، فمِن الممنوع عندهم هو الإستشفاع

بالميت، يقول ابن تيمية الموافق لهذه العقيدة: «وأيضاً فإن طلب شفاعته ودعائه واستغفاره بعد موته وعند قبره ليس مشروعاً عند أحد من أئمة المسلمين»(ابن تيمية، قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة، ١٤٢٢ق: ج ١، ص ١٦٠)، فلا يجوز الإستشفاع إلا بالحى الحاضر، ولإثبات هذه الدعوى إستدلوا ببعض الأدلة التى يظنون أنها تنفى جواز طلب الشفاعة من الأموات، و سنجيب عنها.

الأمر الثانى: شمول حكم الآية الكريمة لجميع افراد الأمة

هناك قاعدة فقهية عند فقهاء المسلمين تقول «إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»(السبكى، عبد الوهاب بن¬تقى الدين، الأشباه والنظائر، ١٩٩١م: ج٢ ص١٣٦) أى: إن كل أمر أو نهى اذا صدر فى أحد من الصحابة، فإنه موجه إلى كافة الأمة، إلا أن يدل دليل على الخصوص، أو على أنه كان مشروعًا فى ذلك العهد ثم نُسخ.

فبناءاً على هذه القاعدة، الكثير من الآيات التى نزلت فى قوم معينين لاتختصّ بهم، بل حكمها لجميع أفراد الامة الاسلامية فى كل زمان ومكان فمثلا: آية المواريث :{ يُوصِيكُمُ اللّهُ فِى أَوْلَادِكُمْ لِلذّكَرِ مِثْلُ حَظّ الْأُنْثَيَيْنِ}(النساء:١١) نزلت فى بنات سعد بن¬الربيع، لكن حكمها عامٌ لجميع المسلمين، وكذا قوله تعالى: {علم الله أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ}(البقرة:١٨٧)، وآية اللعان، وغيرها من الآيات، وحديث الولد للفراش وغيرها من الأحاديث، حُكمها لجميع المسلمين ولم يقل أحد أن حُكمها تختصّ بالذين نزلت فيهم دون غيرهم.

فإذن هذه الآية الكريمة وإن كانت نازلة فى قوم معيّنين تخطابهم وهم المنافقين الذين تحاكموا الى يهود، لكن حكمها لجميع أفراد الامة فى كل زمان ومكان.

دفع شبهه

وأما ما ذكروا بأن الآية الكريمة جاء فيها الفعل بزمن ماضٍ:{وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرّسُولُ} وجعلوها دليلاً على تخصيصها بزمن الماضى، فيُجاب عنه: بأنه لا يوجد تخصيص بزمن حياة النبى(ص) فى هذه الآية، بل هى مطلقة، تشمل زمن الحياة وزمن ما بعد الممات، والتخصيص يحتاج الى دليل كما سبق، وقوله تعالى: {وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرّسُولُ}لايدل على هذا التخصيص لأن الفعل (اسْتَغْفَرَ) وإن كان ماضياً وفى زمانه (ص)، لكنه لا مانع من استغفار

الرسول للمستشفعين به بعد مماته، لما جاء فی الحديث النبوی: «حَيَاتی خَيْرٌ لَكُمْ تُحْدِثُونَ وَيُحْدَثُ لَكُمْ، فَإِذَا كَانَتْ وَفَاتی خَيْراً لَكُمْ، تُعْرَضُ عَلَیَّ أَعْمَالُكُمْ، فَإِنْ رَأَيْتُ خَيْراً حَمِدْتُ اللّهَ، وَإِنْ رَأَيْتُ شَرًّا اسْتَغْفَرتُ لكُم» يشير الی أن النبی(ص) يستغفر للمومنين بعد وفاته. وقد نقل هذا الحديث الهيثمی فی مجمع الزوائد فی باب أسماه «ما يحصل لأمته(ص) من استغفاره بعد وفاته» وقال بعد ذكر الحديث: «رواه البزار ورجاله رجال الصحيح»(الهيثمی، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ۱۹۹٤م: ج۹ ص۲٤)وذكره ايضاً ابن‌كثير فی البداية والنهايه(بن كثير الدمشقی، البداية والنهاية، ۱۹۹۸م: ج۵ ص۲۷۵) وبن‌سعد فی طبقاته(بن‌سعد الزهری، الطبقات الكبری، ۱۹۹۰م: ج۲،ص۱٤۹) وابن‌حجر العسقلانی فی المطالب العالية(بن‌حجر العسقلانی، المطالب العالية، ۱٤۱۹ق: ج۱۵، ص۵۸۵) والبزار فی مسنده(البزار، مسند البزار، ۲۰۰۹م: ج۵، ص۳۰۸) وقال الحافظ العراقی فی طرح التثريب: «إسناده جيد»(العراقی، طرح التثريب فی شرح التقريب، ۲۰۰۰م: ج۳ ص،۲۹۷) وصححه السيوطی فی الخصائص، فهو يتمكن من الدعاء والإستغفار للأحياء بعد وفاته.

دفع توهم

لعله يقال() إنه بحسب هذا الفهم من الآية يكون المجیء إلی قبر النبی(ص) أمراً واجباً علی كل مسلم يظلم نفسه بل كل مرة عند ارتكاب كل ذنبٍ، وعلی هذا فهو تكليف بمالايطاق وأيضا هذا الفهم إلغاء لدور الحج والعمرة.

يجاب عنه: أمّا كونها تحُثٌ علی المجیء الی النبی(ص) فهذا صحيح، قد أمرنا به القرآن الكريم وأشار اليها العلماء حتی علماء الوهابية وقد فَعَلَته الصحابة إذكانوا يأتون النبیّ(ص) فی حياته ويتوسلون به ولم يكن ذلک لهم تكليف بما لا يطاق ولا الغاءاً لدور الحج بل هو تطبقاً للآية الكريمة، ونقول إن حَثّ الأمة علی المجئ فی مماته هو نفس الحثّ علی المجئ فی حياته لا يستوجب التكليف بما لايطاق ولا يُفهم منه الوجوب، والا فهذا إشكال علی نفس الآية الكريمة بحيث تَحُثٌ المسلمين علی المجیء اليه عندما يظلم المسلمُ نفسَه وإن كان فی زمن حياته(ص).

الأمر الثالث: الحياة البرزخية للنبى (ص) وسماعه بعد موته ثابتٌ

إن الحياة البرزخة للأنبياء ثابتة بالأدلة القرانية والروائية؛ وكذلک سماع الموتى للأحياء فى هذه الدنيا ثابتة لما سيأتى؛ فلا مانع من دلالة الأية الكريمة على مشروعية طلب الشفاعة من النبى بعد وفاته(ص).

مما يدل على حياتهم البرزخية، قوله تعالى: {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَـٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ}(البقرة:١٥٤) وقوله تعالى:{ وَلَا تَحْسَبَنّ الّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبّهِمْ يُرْزَقُونَ}(البقرة: ١٦٩)، قال الآلوسى عن هذه الآية: «أما حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام التى هى فوق حياة الشهداء الذين قال الله تعالى فيهم {بَل أحيَاءٌ عِندَ رَبّهِم يُرزَقُونَ} فأمر ثابت بالأحاديث الصحيحة»،(الآلوسى، الآيات البينات فى عدم سماع الأموات، ١٣٩٩ق: ج١، ص ٣٩) وقال الإمام السبكى «حياة الأنبياء والشهداء كحياتهم فى الدنيا»،(الحلبى، السيرة الحلبية، ١٤٢٧ق: ج٢، ص ٢٤٧) وألّف البيهقىّ كتابا أسماه (حياة الأنبياء) يثبّتُ فيها حياتهم (ع).

ومنها، ما جاء فى الحديث النبوى الصحيح: «إن الأنبياء أحياء فى قبورهم يصلون»، قد رواه أبويعلى فى مسنده(أبو يعلى الموصلى، مسند أبى يعلى، ١٩٨٤م: ج٦ ،ص١٤٧) وقال الحافظ الهيثمى فى مجمع الزوائد:« رواه أبو يعلى والبزار ورجال أبى يعلى ثقا ت»(الهيثمى، مجمع الزوائد، ١٩٩٤م: ج ٨، ص٢١١) وفى فيض القدير: رواه أبو يعلى عن أنس بن مالک وهو حديث صحيح(المناوى، فيض القدير، ١٣٥٦ق: ج٣ ،ص١٨٤) وقد صححه الألبانى(المصدر السابق.) وألفّ الأمام البيهقى جزءا فى حياة الأنبياء (ع) فى قبورهم، كما فعل غيرهم من العلماء.

وأما السماع عند الموتى؛ فممّا يدل عليه، قوله تعالى: {فَأَخَذَتْهُمُ الرّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فى دارِهِمْ جاثِمينَ * فَتَوَلّى عَنْهُمْ وَ قالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبّى ...الخ}.(الاعراف: ٩٢-٩٣) هذه الآية تبين أن النبى صالح(ع) يكلم قومه بعد هلاكهم وموتهم، فإذا لم يكن لهم سماع فما هى الفائدة من مخاطبة النبى صالح(ع) لهم؟ بل يكون عبثا وحاشا ان تعمل الانبياء اموراً عبثية؛ ومثل هذا ما جاء فى رواية قتلى قليب بدر فى صحيح مسلم، عن أَنَسِ بن مَالِک: «أنّ رَسُولَ اللّهِ(ص) تَرَکَ قَتْلَى بَدْرٍ ثَلَاثًا ثُمّ أَتَاهُمْ فَقَامَ عليهم فَنَادَاهُمْ فقال يا أَبَا

جَهْلِ بن هِشَامٍ یا أُمَیَّةَ بن خَلَفٍ یا عُتْبَةَ بن رَبِیعَةَ یا شَیْبَةَ بن رَبِیعَةَ أَلَیْسَ قد وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّکُمْ حَقًّا فَإِنِّی قد وَجَدْتُ ما وَعَدَنِی رَبِّی حَقًّا فَسَمِعَ عُمَرُ قَوْلَ النبی (ص) فقال یا رَسُولَ اللّٰهِ کَیْفَ یَسْمَعُوا وَأَنَّی یُجِیبُوا وقد جَیَّفُوا قال وَالَّذِی نَفْسِی بیده ما أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ منهم وَلَکِنَّهُمْ لَا یَقْدِرُونَ أَنْ یُجِیبُوا ثُمَّ أَمَرَ بِهِمْ فَسُحِبُوا فَأُلْقُوا فی قَلِیبِ بَدْرٍ».(النیسابوری، صحیح مسلم، ۱۹۹۰ق: ج٤، ص۲۲۰۳) وفی صحیح البخاری أن النبی(ص) کلّم قتلی قلیب بدر، جاء عن بن¬عُمَرَ انه قال: «اطَّلَعَ النبی (ص) علی أَهْلِ الْقَلِیبِ فقال وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّکُمْ حَقًّا فَقِیلَ له تَدْعُو أَمْوَاتًا فقال ما أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ منهم وَلَکِنْ لَا یُجِیبُونَ».(البخاری، صحیح البخاری، ۱٤۱۹ق: ج۱، ص٤٦۲)

ومنها قوله تعالی:{وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رُسُلِنا ...}(الزخرف: ٤٥) یُؤمَر النبیُّ (ص) بالتکلم مع الأنبیاء والسؤال منهم، وهذا یدلِ علی أنهم یسمعون بإذن الله تعالی، و أیضاً هناک آیات اخری تفید هذا المعنی.

ومنها، ماجاء عن النبی(ص) أنه یسمع ویرد السلام بعد وفاته فی حدیث: «ما من أَحَدٍ یُسَلِّمُ علی الا رَدّ الله عز وجل إلی روحی حتی أَرُدّ علیه السَّلَامَ»(بن‌حنبل الشیبانی، المسند، بی‌تا: ج۲، ص۵۲۷) رواه ابو داود فی سننه(أبوداود السجستانی، سنن أبی‌داود، بی‌تا: ج۲، ص۲۱۸)وقال ابن کثیر فی تفسیرالقران العظیم بعد نقل الحدیث: «...تفرد به أبو داود وصححه النووی فی الأذکار»(بن‌کثیر الدمشقی، تفسیر ابن‌کثیر، ۱٤۱۹ق: ج۳، ص۵۱۵) ونقلها غیرهم أیضاً؛ وشاهد آخر علی ذلک أن جمیع المسلمین منذ ظهور الإسلام یسلمون علی رسول الله فی آخر صلاتهم مخاطبین النبیَ (ص) بقولهم: «السلام علیک یا أیها النبی ورحمة الله وبرکاته» وهذا الخاطب یؤید أنه (ص) یسمع منا خطابنا ولم یکن هذا السلام أمراً عبثیاً.

ومنها، ما وَرَدَ فی صحیح مسلم عنه(ص) أن المیت یسمع خفض النعال وذلک فی قوله: «إِنّ الْمَیِّتَ إذا وُضِعَ فی قَبْرِهِ إنه لَیَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ إذا انْصَرَفُوا»(النیسابوری، صحیح مسلم، ۱۹۹۰م: ج٤، ص۲۲۰۱) هذا حال الإنسان العادی فکیف بالنبی(ص) وهو أعلی درجةً وأعظم مقاماً؟! فلاشک أن النبی(ص) یستشعر بمن زاره ویسمع من یخاطبه بإذن الله تعالی.

ومنها، ماقاله بن¬تيميه: «كان النبى(ص) يُعلّم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا: (سلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين وإنا شاء الله بكم لاحقون ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين نسأل الله لنا ولكم العافية ...) وروى عنه(ص) أنه قال (ما من رجل يمر بقبر رجل كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام) (بن‌تيمية الحرانى، زيارة القبور، ١٤١٠ق: ج١، ص١٦)»؛ وروايات أخرى فى هذا المضمار كثيرةٌ تُثبتُ أن للاموات قدرة على السماع وأن لهم صلة بالدنيا.

فمع ثبوت الحياة البرزخية وكونهم قادرين على سماع الأحياء بإذن الله يجوز لنا أن نخاطبه(ص) ونطلب منه حوائجنا كما لو كان(ص) فى قيد الحياة الدنيوية و يثبتُ أن دلالة الآية تشمل ما بعد وفاة النبى(ص)أيضاً، فلا مانع منه حينئذٍ.

دفع شبهة

و أما ما جاء فى قوله تعالى:{إِنّکَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى وَ لا تُسْمِعُ الصُّمّ الدُّعاءَ إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ}(نمل:٨٠) وقوله تعالى:{وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِى الْقُبُورِ}(فاطر: ٢٢.)، لا يُثبت بهاتين الآيتين عدمُ سماع الموتى لأحياء هذه الدنيا، بل إن المراد من عدم السماع فى الآيتين هو نفى إنتفاع الكفار من الموعظة والإرشاد، لعدم استجابتهم وطاعتهم لله تعالى، وبهذا السبب شَبّه اللهُ الكفارَ بالموتى، فكما أن الميت لايتمكن من الإنتفاع بالموعظة، فكذلک الكافر لاينتفع من الموعظة لعدم استجابته لها، فنفىُ السماعِ عنهم كنايةٌ عن عدم إنتفاعهم من الموعظة، بمعنى أنهم فى الواقع يسمعون الكلام عنک لكنهم لاينتفعون من قولک ولا يستجيبون لک، ويؤيد هذا التفسير قول النبى(ص) لأصحابه فى قتلى قليب بدر بعد أن خاطب القتلى وكلّمهم وأسمعهم فقال: «ما أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ منهم وَلَكِنْ لَا يُجِيبُونَ»(البخارى، صحيح البخارى، ١٩٨٧م: ج١، ص٤٦٢) أى أنهم مع كونهم فارقوا الحياة الدنيوية يسمعون أصواتنا وإنما لا قدرة له على الكلام حتى حتى نسمع الإجابة منهم.

وكذلک يؤيد هذا المعنى ايضا ماقاله الطبرى فى تفسيره: «وقوله {إِنّکَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتى} يقول إنک يا محمد لا تقدر أن تفهّم الحق من طبع الله على قلبه فأماته لأن الله قد ختم عليه أن لا يفهمه {وَ لا تُسْمِعُ الصُّمّ الدُّعاءَ} يقول ولا تقدر أن تسمع ذلک من أصم الله

عن سماعه سمعه {إِذا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ} يقول إذا هم أدبروا معرضين عنه لا يسمعون له لغلبة دين الكفر على قلوبهم ولا يصغون للحق ولا يتدبرونه ولا ينصتون لقائله ولكنهم يعرضون عنه وينكرون القول به والاستماع له».(الطبری، جامع البیان تفسیر الطبری، ۲۰۰۰م: ج۱۸ ص۱۱۸)

فإذن التعبير بعدم السماع فی الآيتين هو على سبيل التشبيهٔ بحيث شبه الله تعالى بالموتى، مَن مات قلبُه من الكفار الذين لاتنفعهم الموعظهٔ ولا الارشاد، لأنهم لايسمعون الكلام ای لايستجيبون له فلا فائدهٔ من ارشادهم وموعظتهم.

وكذا قال ابن العثيمين أحد كبار علماء الوهابيهٔ المعاصر فی جواب سوالٍ عن سماع الرسول (ص) بعد وفاته: «الذی يظهر لی من الأدلهٔ الشرعيهٔ أن النبی (ص) يسمع سلامه عليه وأنه يبلغ إياه وكذلک أيضا أهل القبور إذا سلم عليهم فإنهم يسمعون لأن المسلم يقول السلام عليكم بكاف الخطاب وقد ورد حديث صححه ابن عبد البر وذكره ابن القيم فی كتاب الروح ولم يتعقبه أنه (ما من رجل مسلم يمر بقبر رجل مسلم يعرفه فيسلم عليه إلا ردّ الله عليه روحه فرد عليه السلام) وقد ثبت فی الصحيح أن النبی وقف على القتلى قتلى المشركين فی بدر وقال لهم (يا فلان ابن فلان يدعوهم بأسمائهم وأسماء آبائهم هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإنی وجدت ما وعد ربی حقاً) فقال له عمر أو غيره ما تكلم يا رسول الله من أناس جيفوا فقال (ما أنتم بأسمع لما أقول منهم) فأثبت النبی (ص) أنهم يسمعون وأما قوله تعالى {فَإِنَّکَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ...} فالمراد أنک لا تسمع الموتى إسماع إدراک ينفعهم فإن الميت لا يسمع إذا دعی وإذا نودی بحيث يجيب من دعاه وهذا هو المقصود من قوله {إِنَّکَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} بدليل قوله تعالى {وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ} فنفی السماع عنهم لعدم انقيادهم فكذلک الموتى ينتفی عنهم السماع أو الإسماع لأنهم لا ينتفعون بذلک ولا يجيبون من أسمعهم هذا هو ما ظهر لی فی هذه المسألهٔ أنّ من سلّم على النبی(ص) فإنه يسمعه»(ابن عثيمين، فتاوى نور على الدرب، ۱٤۱۳ق: ج۹، ص۲). .

الأمر الرابع: المجيء الى قبره يعدّ نفس المجيء الى شخصه (ص) بلا فرق

إن المجيء إلى قبر النبى(ص) يصدق عليه المجيء إلى شخص النبى(ص) نفسه، فإننا لم نقصد التراب والجماد الذى هو الضريح والقبر، بل نقصد روحه الطاهرة التى تسمع وتعى اقوال الزائرين لها لأن الأنبياء أحياء فى قبورهم كما جاء فى الحديث النبوى: «أن الانبياء احياء فى قبورهم يصلون» ويسمعون كلام من يجيء اليهم ويزورهم، ويردون السلام عليهم كما سبق، و أيضاً يؤيد هذا المعنى ما رواه الحاكم فى المستدرک بإسناد صححه الحاكم ووافقه الذهبى، أنه: «أَقْبَلَ مَرْوَانُ يَوْمًا فَوَجَدَ رَجُلًا وَاضِعًا وَجْهَهُ عَلَى الْقَبْرِ، فَقَالَ: أَتَدْرِى مَا تَصْنَعُ؟ فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ فَإِذَا هُوَ أَبُو أَيُّوبَ، فَقَالَ: نَعَمْ، جِئْتُ رَسُولَ اللهِ(ص) وَلَمْ آتِ الْحَجَرَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " لَا تَبْكُوا عَلَى الدِّينِ إِذَا وَلِيَهُ أَهْلُهُ، وَلَكِنْ ابْكُوا عَلَيْهِ إِذَا وَلِيَهُ غَيْرُ "».(الحاكم النيسابورى، المستدرک على الصحيحين، ١٩٩٠م: ج٤، ص٥٦٠)

فهذا ابو أيوب الأنصارى وهو صحابى من السلف الصالح يقول إن الإتيان إلى قبر النبى(ص) هو إتيان إلى شخص النبى(ص) وليس إتيان إلى حجرٍ وفهم الصحابى عندهم أصحّ من فهمهم.

الأمر الخامس: عمل الصحابة بالآية بعد وفاته (ص)

قد وردت رواياتٌ تدلّ على أن الصحابة قد استشفعوا بالنبى الأكرم (ص) بعد وفاته ولم يتركوا هذا العمل وأن إستشفاعهم بالنبى(ص) بعد مماته ثابت عنهم ولا مانع من ذلک.

نذكر لكم روايتين بإختصار؛ الأولى هى رواية مالک الدار وفيها أن بلال بن حارث إستشفع بالنبى (ص) بعد وفاته من دون إستنكار احد من الصحابه لفعله، ذكرها العسقلانى فى كتابه فتح البارى: «وروى بن أبى شيبة بإسناد صحيح من رواية أبى صالح السمان عن مالک الدارى وكان خازن عمر قال أصاب الناس قحط فى زمن عمر فجاء رجل إلى قبر النبى (ص) فقال يا رسول الله استسق لامتک فإنهم قد هلكوا فأتى الرجل فى المنام فقيل له ائت عمر الحديث وقد روى سيف فى الفتوح أن الذى رأى المنام المذكور هو بلال بن الحارث المزنى أحد الصحابة»(العسقلانى الشافعى، فتح البارى، ١٤١٩ق: ج٢، ص ٤٩٥).

نقل هذه الروایة وصححها، ابن¬کثیر فی البدایة والنهایة(بن‌کثیر القرشی، البدایة والنهایة، ۱۹۹۸م: ج۷، ص۹۲) ونقلها ایضا البیهقی فی دلائل النبوة(البیهقی، دلائل النبوة، بی‌تا: ج ۷، ص٤٧). فهذه الروایة الصحیحة من اوضح الروایات فی مشروعیة طلب الشفاعة من النبی الاکرم (ص) بعد وفاته بحیث لایمکن إنکارها.

وأما الروایة الثانیة فهی روایة عثمان بن حنیف تحکی أن رجلاً إستشفع بالنبی (ص) بعد وفاته للدخول علی عثمان فی زمن خلافته، رواها الطبرانیٌ فی المعجم الکبیر: «أنّ رَجُلا کان یَخْتَلِفُ إلی عُثْمَانَ بن عَفّانَ فی حَاجَةٍ له فَکَانَ عُثْمَانُ لا یَلْتَفِتُ إلیه وَلا یَنْظُرُ فی حَاجَتِه فَلَقِیَ بن حُنَیْفٍ فَشَکَی ذلک إلیه فقال له عُثْمَانُ بن حُنَیْفٍ ائْتِ الْمِیضَأَةَ (محل الوضوء) فَتَوَضّأْ ثُمّ ائْتِ الْمَسْجِدَ فَصَلِّ فیه رَکْعَتَیْنِ ثُمّ قُلْ اللّهُمّ انی أَسْأَلُکَ وَأَتَوَجّهُ إلَیْکَ بنبِیّنَا مُحَمّدٍ (ص) نَبِیّ الرّحْمَةِ یا محمد إنی أَتَوَجّهُ بِکَ إلی رَبّی فَتَقْضِی لی حَاجَتِی وَتُذَکّرُ حَاجَتَکَ وَرُحْ حتی أَرُوحَ مَعَکَ فَانْطَلَقَ الرّجُلُ فَصَنَعَ ما قال له ثُمّ أتی بَابَ عُثْمَانَ بن عَفّانَ فَجَاءَ الْبَوّابُ حتی أَخَذَ بیده فَأَدْخَلَهُ علی عُثْمَانَ بن عَفّانَ فَأَجْلَسَهُ معه علی الطّنْفِسَةِ فقال حَاجَتُکَ فذکر حَاجَتَهُ وَقَضَاهَا له ثُمّ قال له ما ذَکَرْتُ حَاجَتَکَ حتی کان السّاعَةُ وقال ما کانت لک من حَاجَةٍ فَأْذُکُرْهَا ثُمّ إنّ الرّجُلَ خَرَجَ من عِنْدِه فَلَقِیَ عُثْمَانَ بن حَنِیفٍ فقال له جَزَاکَ اللّهُ خَیْرًا ما کان یَنْظُرُ فی حَاجَتِی وَلا یَلْتَفِتُ إلی حتی کَلّمْتَهُ فِیّ فقال عُثْمَانُ بن حُنَیْفٍ وَاللّهِ ما کَلّمْتُهُ وَلَکِنّی شَهِدْتُ رَسُولَ اللّهِ(ص) وَأَتَاهُ ضَرِیرٌ فَشَکَی إلیه ذَهَابَ بَصَرِهِ فقال له النبی(ص) فَتَصَبّرْ فقال یا رَسُولَ اللّهِ لیس لی قَائِدٌ وقد شَقّ عَلَیّ فقال النبی (ص) ائْتِ الْمِیضَأَةَ فَتَوَضّأْ ثُمّ صَلِّ رَکْعَتَیْنِ ثُمّ أدع بِهَذِهِ الدّعَوَاتِ قال بن حُنَیْفٍ فو الله ما تَفَرّقْنَا وَطَالَ بنا الْحَدِیثُ حتی دخل عَلَیْنَا الرّجُلُ کَأَنّهُ لم یَکُنْ بِهِ ضُرٌّ قَطُّ».

ونقلها وصححها أیضاً الطبرانی فی المعجم الصغیر(الطبرانی، المعجم الصغیر، ۱۹۸۵م: ج۱، ص ۳۰٦) وصححه البیهقی فی مجمع الزوائد(الهیثمی، مجمع الزوائد، ۱۹۹٤م: ج۲، ص۲۷۹) وقالا بعد نقل الحدیث: «والحدیث صحیح» وممن روی هذا الحدیث أیضاً المنذریُ فی الترغیب والترهیب(المنذری، الترغیب والترهیب، ۱٤۱۷ق: ج۱، ص۲۷۳) والهیثمی فی مجمع الزوائد(الهیثمی، مجمع الزوائد، ۱۹۹٤م: ج۲، ص۲۷۹)، وغیرهم.(أبو العلا المبارکفوری، تحفة الأحوذی، بی‌تا: ج۱۰، ص۲٤ و رواه غیرهم).

الروايتان تدلان على أن الإستشفاع به (ص) بعد وفاته كان جائزا ومشروعا عندهم، وقد أوردهما ائمةُ الحديث فى كتبهم ولم ينبّهوا على أن هذا الفعل من مالک الدار او الرجلِ، شركٌ بالله ولم يرووا إستنكار أحد من الصحابة لهذا الإستشفاع الصادر منهم، وبناءً على حجية فهم الصحابة، فهى حجة على من زعم أنه تابع لهم.

ومزيداً على ذلک فإن إستناد العلماء بروايةِ العتبى ونَقلِها فى كتبهم من دون استنكارهم لفعل الأعرابى كما سبق، يُقوىّ عندهم صحة مضمونها أى صحة جواز الإستشفاع به(ص) بعد وفاته، وهناک رواياتٌ أخرى فى جواز الإستشفاع به(ص) لم نذكرها للاختصار.

دفع شبهة

أما ما ورد من فِعل عُمر بن الخطاب فى زمن خلافته بحيث تَرَکَ التوسل بالنبى (ص) وأبدَلَها بالتوسّل بالعباس عَمّه (ص) وهوکان حيّاً آنذاک، لا يصح جعلُه دليلاً على عدم جواز التوسل والإستشفاع بالميت، لأن إثبات الشيء لا ينفى ما عداه كما قُرّر فى الأصول أى إن توسّلَ عُمر بالعباس وترکه للتوسل بالنبى (ص) لايدل على عدم مشروعية التوسل أو الإستشفاع به(ص) بعد مماته، كما أن ترک النبى(ص) لكثير من الأعمال لايدل على عدم مشروعية تلک الأعمال، وبعبارة أخرى، إن ترک الفعل منه (ص) لا يدل على عدم مشروعيته بل يحتاج الى دليل آخر، وإضافةً الى ذلک إن الخليفة الثانى لم يصرح أن سبب ترکه للتوسل به (ص) هوعدم مشروعيته.

فالحاصل أنه لايصح القول بأن الصحابة تركوا الإستشفاع بالنبى (ص) بعد وفاته، بل عكس ذلک ثابتٌ عنهم، فلا مانع حينئذٍ من دلالة الآية الكريمة على مشروعية الإستشفاع به (ص) بعد مماته.

الأمر السادس: طلب الشفاعة بعد وفاته (ص) ليس عبادة غير الله

لا إشكال فى طلب الشفاعة من النبى(ص) بعد وفاته ولا يُعدُّ هذا عبادة غيرالله تعالى، بل حقيقة هذا الإستشفاع هو نفس ذاک الطلب للشفاعة منه(ص) فى زمان حياته المشروع والمأمور عند الشارع، ولايصح جعل الفرق بين الإستشفاع زمن حياته و بين زمن مماتها لأن الحياة البرزخية وقدرة السماع للأموات ثابتٌ لاسيما للأنبياء كما سبق، فلا مانع حينئذ من دلالة الآية الكريمة على مشروعية الاستشفاع به (ص) بعد وفاته (ص).

وأما ما أوردوا لمنع الإستشفاع به (ص) بعد وفاته، من قوله تعالى: {وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُکَ وَلَا يَضُرُّکَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّکَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ}(يونس : ١٠٦) وقوله تعالى:{وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ}(فاطر :١٣و ١٤) وغيرها من الآيات، بكونها تنهى عن الدعاء، والدعاء عبادة وقد ذم الله تعالى الذين يدعون من دونه.

يجاب عنه، أولاً: إن للدعا معانٍ مختلفة منها ما هو بمعنى النداء: {إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا(القصص:٢٢) أى يناديک، ومنها بمعنى الحثّ على الشيء: {قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ}(يوسف:٣٣) أى يحثّونى عليه، ومنها بمعنى العبادة: {وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم}(الكهف:٢٨) أى يعبدون ربهم، وغيرها من المعانى كما جاءت فى كتب التفسير، فإذن ليس كل دعاءٍ فى القرآن يساوى العبادة أو يكون بمعناها.

وأمّا الآيتين، فالمراد من الدعاء فيهما هى العبادة المنهية عند المشركين وليس الدعا فيهما بمعنى النداء، لأنهم كانوا يعبدون الاصنام معتقدين فيها النفع والضرر من دون الله فكانوا يطلبون منها الرزق والمطر وغيرها، من دون أن يعتقدوا أن تلک الأمور بمشيئة الله تعالى، وبهذا السبب ذمّ الله تعالى المشركين وبيّنَ انحراف عقيدتهم، وأما المسلم المُستشفِع به (ص) لايعتقد أن النبى (ص)أو الأموات ينفعون من دون الله بل يعتقد أن كل أمرٍ ونفعٍ وضررٍ هو بإذنه تعالى وبمشيئته، وأيضاً لا يؤمن بعبادة غير الله وحده لاشريک له، وإنما يجعل النبىّ (ص)، واسطةً ووسيلةً بينه وبين الله تعالى، كما استشفع الصحابةُ بالنبى الأكرم(ص) فى حياته وجعلوه واسطةً بينهم وبين الله تعالى لطلب الإستغفار وقضاء حوائجهم، فلافرق بين الإستشفاع بالميت أو بالحى، ولا علاقة للآيتين بطلب الشفاعة من الأموات ولا مانع حينئذ لدلالة الآية الكريمة على مشروعية الاستشفاع به (ص) بعد وفاته.

وثانياً: إن الآيتين لو صحّ أنهما تنفيان مشروعية الإستشفاع بالميت، فإنهما إذن تنفيان مشروعية طلب الشفاعة منه مطلقاً سواء كان النبى حياً أو ميتاً، لإطلاق تلک الآيتين، فبناءاً على هذا الفهم يلزم من كون القرآن ينفى جواز مطلق الطلب من غير الله الذى يشمل الطلب من الحى أيضاً، وهذا لا يقول به أحدٌ حتى الوهابية لأنهم يُجوّزون طلب الشفاعة

من الحى، وكما كانت الصحابة يطلبون الشفاعة من الرسول(ص)، فيتبين لنا أن الآيتين وغيرهما من الآيات بهذا المعنى، لاعلاقة لها بنفى مشروعية طلب الشفاعة من الميت، بل إن تلك الآيات تنفى عقيدة المشركين لكونهم كانوا يعبدون الأصنام ويطلبون منها النفع من دون الله تعالى.

الأمر السابع: عدم وجود التعارض بين الآية و حديث النبوى «إذا مات ابن آدم»

إن دعاء وإستغفار النبى (ص) لأمته بعد وفاته ثابت كما مرّ فى البحث عن حديث «حَيَاتى خَيْرٌ لَكُمْ ... وَإِنْ رَأَيْتُ شَرًّا اسْتَغْفَرتُ لكُم»؛ وأما ما ورد فى الحديث النبوى: «إِذَا مَاتَ ابنُ آدم انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ...الخ» لا يمنع ثبوت ذلک، لأن هذا الحديث يشير الى أن ابن آدم اذا مات ينقطع عنه وصول الثواب من أعماله التى عَمِلَها فى الدنيا إلا من ثلاث أمور التى وصول ثوابها للميت مستمرٌ حتى ما بعد وفاته، وليس معنى الحديث أنه بعد موته لم يقدر على فعلٍ كالدعاء والإستغفار للأحياء، وإلا لكان المعنى المفهوم منه هو أن الميت لم يقدر على فعل شىء إلا فعل الأعمال الثلاثة المستثنية فى الحديث وبعبارةٍ أخرى: إن الميت يتمكن من التصدّق والإتيان بولدٍ صالحٍ وإيجاد علمٍ ينتفع به، دون غيرها من الأعمال، وهذا المعنى باطل بالوجدان ولا يُراد، فلا دلالة لهذا الحديث على عدم القدرة للنبى (ص) على أن يستغفر للمومنين بعد موته (ص)، ولا تعارض بين دلالة الآية الكريمة على مشروعية الإستشفاع به (ص) بعد وفاته وبين حديث «إذا مات ابن آدم»، بل استغفاره ودعائه للأحياء بعد وفاته ثابت.

الأمر الثامن: عدم التعارض بين الآية و آية (إن الذين ينادونک من وراء الحجرات)

لا إشكال فى مخاطبة المسلم للنبىّ (ص) عند قبره الواقع فى حجرته وبيته، فالمستشفع به لا يقصد الا الشفاعة والدعاء منه، كما حثت الآية الكريمة كل مسلمٍ على ذلک.

وأما قوله تعالى {إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَکَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}(الحجرات، ٤.) تشير الى أدب التخاطب مع النبى الأكرم(ص)، لا الى منعِ التخاطب معه، أما شأن نزول هذه الآيه تشرح لنا أنه عندما جاء اليه قوم من بنى تميم، وكان النبى حينها فى بيته وحجرات

نسائه، لم يصبروا حتى يخرج اليهم، بل نادوه بصوت عالٍ: يا محمد يا محمد إخرج الينا، فلم يراعوا الأدب مع الرسول(ص) والآية التى تليها تقول {وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} توضّح لنا أنهم لو صبروا لكان أفضل من مناداتهم للنبى(ص) وسوء أدبهم معه، كما جاء فى كتب التفاسير، وأما المستشفع به لايقصد إسائة الأدب لساحته (ص) ولا تُطبّق عليه هذه الآية بل يجب على المسلم المستشفع به أن يخاطبه بكمال الأدب والإحترام، مثل ما يفعله المسلمون عند زيارة قبر النبى(ص) عندما يخاطبونه وينادونه، وهذه الأعمال من الامور المستحبة عند المسلمين المذكورة فى آداب الزيارة للنبى الأكرم (ص).

النتيجة

عُلم مما سبق أن الإستشفاع بالنبى الاكرم (ص) أو بولى من اولياء الله لقضاء الحوائج، أمر جائز ومشروع بل هو أمر محبوبٌ عند الله عزّ وجلّ وقد أمرنا بذلك، كما جاء قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا؛} فحَثُّ الامةَ على المجيء اليه (ص) والإستشفاع به، أمرٌ قرآنى الهى و مرغوبٌ عند الشارع، وهذه الآية مطلقة تشمل زمن حياته وزمن مماته (ص) بلا فرقٍ بينهما، ولا يوجد دليل صحيح يقيّدها ويخص مشروعية طلب الشفاعة منه(ص) بزمن حياته، كما اشار الى هذا المعنى بعض كبار علماء السنة كالسبكى و غيره، بل هذا التخصيص من ابداعات الفكر الوهابى.

ومما يويد مشروعية الإستشفاع بزمن الممات وتوافق إطلاق دلالة الآية الكريمة، هى الروايات الصحيحة التى تروى إستشفاع بعض الصحابة بالرسول الأعظم(ص) بعد وفاته(ص) كرواية مالک الدار و رواية عثمان بن حنيف.

وثبت أيضاً بالأدلة القرانية وبالاحاديث الصحيحة كون الميت له حياة برزخية يسمع لمن يخاطبه ويشعر به، وأن بيننا وبينهم صلة فيمكن لنا الانتفاع منهم بإذن الله تعالى، فلا يصح اعتقاد الوهابية بكون الميت لايسمع ولا يبقى مانع لدلالة الآية الكريمة على جواز الإستشفاع به بعد مماته، وأما قولهم انها نزلت فى قوم مُعَيّنين وأن حُكمها تختصّ بمن نزلت فى

حقهم لايصح، لأن الاحكام الاسلامية عامة لجميع الأزمنة الا اذا ورد دليل خاص ولا دليل فى هذا المقام، وكذلک لا محل لسائر الاشكالات او الشبهات التى أوردتها الوهابية كالآيات التى تذم الدعاء من دون الله وظنّوا انها تنفى الإستشفاع بالميت مع أن هذه الآيات خارجة عن موضوع البحث لأنها تنفى صحة اعتقاد المشركين باصناهمهم التى كانوا يعبدونها و يطلبون منها النفع والضرر والرزق وغيرها من دون الله سبحانه وتعالى، فيعطونها صفات ربوبية على وجه الاستقلال وحاشا ان يكون المتوسِّل المسلم كذلک بل يعتقد أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم و آخر دعونا ان الحمد لله رب العالمين.

المصادر

* القران الكريم.

١. ابن المنذر، محمد بن إبراهيم،تحقيق: سعد بن محمد السعد، تفسير القرآن، ٢مجلد، دار المآثر-المدينة النبوية، الطبعة: الأولى ٢٠٠٢م.

٢. ابن تيمية، أحمد بن عبدالحليم،(المتوفى: ٧٢٨هـ) ،قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة، المحقق: ربيع بن هادى عمير المدخلى الناشر: مكتبة الفرقان-عجمان، الطبعة: الأولى (لمكتبة الفرقان) ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١هـ

٣. ابن عثيمين، محمد بن صالح،مجموع فتاوى ورسائل، (المتوفى : ١٤٢١هـ)، جمع وترتيب : فهد بن ناصر السليمان، الناشر : دار الوطن - دار الثريا، الطبعة : الأخيرة - ١٤١٣ هـ عدد الأجزاء: ٢٦.

٤. ابن فارس، احمد بن فارس. محقق عبد السلام محمد هارون. ، معجم مقاييس اللغة، ١٤٠٤ ه.ق.، قم - ايران، مكتب الإعلام الإسلامى. مركز النشر.

٥. ابن ماجه، محمد بن يزيد، سنن ابن ماجه،دارالنشر: دار الفكر-بيروت، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى.

٦. أبو يعلى الموصلى، أحمد بن على، مسند أبى يعلى، دار النشر: دار المأمون للتراث-دمشق-١٩٨٤ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: حسين سليم أسد،مجلد١٣.

٧. أبوداود السجستانى، سليمان بن الأشعث، سنن أبى داود، دار النشر: دار الفكر، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد.

٨. الشوكانى، محمد بن على، فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير،٦مجلدات، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب-دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى-١٤١٤ هـ

٩. الآلوسى، نعمان بن محمود، الآيات البينات فى عدم سماع الأموات على مذهب الحنفية السادات، تحقيق: محمد ناصر الدين الألبانى، الطبعة: الثانية،دار النشر: ١٣٩٩هـ

١٠. البخارى، محمد بن إسماعيل،الجامع الصحيح المختصر، دارالنشر: دار ابن كثير، اليمامة-بيروت-١٩٨٧م، الطبعة: الثالثة، تحقيق: د.مصطفى ديب البغا.

١١. البزار، أحمد بن عمرو، مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار،١٨مجلد، المحققون: محفوظ الرحمن زين الله، وعادل بن‌سعد، وصبرى.عبد الخالق الشافعى، الناشر: مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م).

١٢. بن باز، عبد العزيز بن عبد الله، مجموع فتاوى العلامة عبد العزيز بن باز، جمعه وطبعه: محمد بن سعد الشويعر، ٣٠مجلد.

١٣. بن تيمية الحرانى، أحمد بن عبد الحليم، زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور، دار النشر: الإدارة العامة للطبع والترجمة، الرياض، ١٤١٠هـ الطبعة: الأولى.

١٤. بن حجر العسقلانى، أحمد بن على، المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، دار النشر: دار العاصمة/دار الغيث-السعودية- ١٤١٩هـ الطبعة: الأولى، تحقيق: د.سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشترى.

١٥. بن حجر العسقلانى، أحمد بن على، فتح البارى شرح صحيح البخارى، المحقق: ١٧رسالة علمية قدمت لجامعة الإمام محمد بن سعود، تنسيق: د. سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشثرى، الناشر: دار العاصمة، دار الغيث - السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ ١٩مجلد.

١٦. بن حنبل الشيبانى،احمد بن حنبل، المسند، دارالنشر: مؤسسة قرطبة - مصر.

١٧. بن خزيمة، محمد بن إسحاق، صحيح ابن خزيمة، دار النشر: المكتب الإسلامى- بيروت- ١٩٧٠م، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمى.

١٨. بن سعد الزهرى، محمد بن سعد بن منيع، الطبقات الكبرى، ٨مجلدات، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلميةبيروت، الطبعة:الأولى، ١٩٩٠م.

١٩. بن قدامة المقدسى، عبد الله بن أحمد، المغنى فى فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى، الناشر:مكتبة القاهرة الطبعة: بدون طبعة، ١٠مجلد، تاريخ النشر: ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

۲۰. بن کثیر القرشی، إسماعیل بن عمر ، البدایة والنهایة، اسم المؤلف: أبو الفداء، دار النشر: مکتبة المعارف، بیروت.

۲۱. بن‌کثیر الدمشقی، إسماعیل بن‌عمر، البدایة والنهایة،١٤مجلد،المحقق: علی شیری، الناشر: دار إحیاء التراث العربی،الطبعة:الأولی ۱۹۸۸م.

۲۲. بن‌کثیر الدمشقی، إسماعیل بن‌عمر، تفسیر القرآن العظیم،۹مجلد، المحقق: محمد حسین شمس‌الدین، الناشر: دار الکتب العلمیة،.منشورات محمد علی بیضون – بیروت، الطبعة: الأولی - ١٤١٩ هـ

۲۳. البیهقی، أحمد بن الخراسانی، دلائل النبوة، دار النشر

٢٤. تحفة الأحوذی بشرح جامع الترمذی، اسم المؤلف: محمد عبد الرحمن بن عبد الرحیم المبارکفوری أبو العلا، دار النشر: دار الکتب العلمیة– بیروت.

۲۵. الترمذی، محمد بن عیسی، الجامع الصحیح سنن الترمذی، دار النشر: دار إحیاء التراث العربی–بیروت، تحقیق: أحمد محمد شاکر وآخرون.

٢٦. الثعلبی، احمد بن إبراهیم، الکشف والبیان عن تفسیر القرآن، (ت ٤٢٧ هـ)، أشرف علی إخراجه: د. صلاح باعثمان، د. حسن الغزالی، أ. د. زید مهارش، أ. د. أمین باشه تحقیق: عدد من الباحثین، الناشر: دار التفسیر، جدة - المملکة العربیة السعودیة، الطبعة: الأولی، ١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م، عدد الأجزاء: ٣٣.

۲۷. الحاکم النیسابوری، المستدرک علی الصحیحین، محمد بن عبدالله، الوفاة: ٤٠٥ هـ دار النشر: دار الکتب العلمیة–بیروت- ۱۹۹۰م، الطبعة: الأولی، تحقیق: مصطفی عبد القادر عطا.

۲۸. الحلبی، علی بن برهان الدین، السیرة الحلبیة فی سیرة الأمین المأمون، الناشر: دار الکتب العلمیة–بیروت، الطبعة: الثانیة- ١٤٢٧هـ ۳مجلد.

۲۹. الدمیاطی، أبی بکر ابن السید محمد، حاشیة إعانة الطالبین علی حل ألفاظ فتح المعین لشرح قرة العین بمهمات الدین، الناشر: دار الفکر للطباعة والنشر والتوریع الطبعة: الأولی، ۱۹۹۷م.

٣٠. الرازى ابن أبى حاتم، عبد الرحمن بن محمد، تفسير القرآن العظيم، المحقق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز-المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة- ١٤١٩ هـ

٣١. الرازى، محمد بن‌عمر، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب،٣٢مجلد، دارإحياء التراث العربى- بيروت، الطبعة: الثالثة- ١٤٢٠ هـ

٣٢. راغب اصفهانى حسين بن محمد. ١٤١٢. مفردات ألفاظ القرآن. بيروت - لبنان: دار الشامية.

٣٣. الرفاعى، محمد نسيب بن عبد الرزاق، التوصل إلى حقيقة التوسل-المشروع والممنوع، الناشر: دار لبنان للطباعة والنشر،بيروت، الطبعة:الثالثة، ١٩٧٩ م.

٣٤. السبكى، عبد الوهاب بن تقى الدين، الأشباه والنظائر الناشر: دار الكتب العلمية الطبعة ١٩٩١م، الأجزاء:٢.

٣٥. السيوطى، جلال الدين عبد الرحمن، الخصائص الكبرى، مجلد واحد، دار النشر: دار الكتب العلمية-بيروت- ١٩٨٥م.

٣٦. الطبرانى، سليمان بن أحمد، الروض الدانى (المعجم الصغير)،دار النشر: المكتب الإسلامى, دار عمار - بيروت، عمان ١٩٨٥ م، الطبعة: الأولى، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير.

٣٧. الطبرانى، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير، دار النشر: مكتبة الزهراء- الموصل- ١٩٨٣م، الطبعة: الثانية، تحقيق: حمدى بن عبدالمجيد السلفى.

٣٨. الطبرى، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آى القرآن، تحقيق: د.عبدالله التركى، الناشر: دارهجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعةالأولى، ٢٠٠١ م، ٢٦ مجلد.

٣٩. الطبرى، محمد بن جرير، جامع البيان فى تأويل القرآن، المحقق: أحمد محمد شاكر،الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى،٢٠٠٠م، ٢٤مجلد.

٤٠. العراقى، عبد الرحيم بن الحسينى، طرح التثريب فى شرح التقريب، ٨مجلد، دار النشر: دار الكتب العلمية-بيروت- ٢٠٠٠م، الطبعة: الأولى.